مجلة الرائد ، العدد ٢٦١ ، ربيع الأول ١٤٢٩ ، أذار – مارس ٢٠٠٨، www.alraid.net

التوازن المفقود

بقلم د . حبيب زين العابدين

في جلسة مع بعض الأصدقاء تحدث أحدنا عن دوامة العمل ومتاعب الحياة وكثرة المشاغل ، التي لم تعد تسمح للإنسان بأبسط أنواع الحياة الاجتماعية ، وروى لنا هذا الأخ الكريم أنه من واقعه الشخصي يكاد يهرب في كثير من الأحيان من رؤية صديق في المسجد أو الحي ، حتى لا يضيع وقته الثمين في حديث عابر ، وأردف صديق آخر يقول إنّ من كثرة متاعب العمل وانشغال المرء بالعديد من القضايا والمشكلات والتكاليف المتلاحقة لم يعد أحدنا يجد الاطمئنان المطلوب في صلاته ، وإنما يؤديها كيفما اتفق ، وعقّب على الصديقين زميل ثالث يشكو من عدم وجود الوقت الكافي لديه لصلة الأرحام أو تفقد الجيران ، وقال أخ آخر ساخراً إننا نحتاج إلى أكثر من ٢٤ ساعة في اليوم لكي نؤدي الواجبات الملقاة علينا ونوازن بينها .

إنّ هذه الأمثلة هي جزء يسير من كثير من الحالات المشابهة التي تبين –للأسف الشديد– أن مجتمعاتنا الإسلاميّة أخذت تفقد كثيراً من مميزاتها التي كان متأصلة فيها حتى الماضي القريب ، وذلك بسبب نمط الحياة الحديثة وتبعاتها وأثر الحضارة الغربية التي دخلت علينا من أوسع الأبواب ، فأصبحنا نفتقد اليوم الترابط الأسري الجميل ، الذي كنا نفتخر به ، وعزّ بيننا الجار الذي يسأل عن جيرانه وينصح لهم ويتفقد أحوالهم .

وما من شك في أن حياتنا اليومية أصبح لها طابع مختلف وأن تعقيداتها لم تعد تسمح للإنسان بالحياة الاجتماعية المنشودة ، إلاّ أن المحافظة على شيء من الحياة الاجتماعية يعتبر من أهم الضروريات ، وما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه. أما الانجراف في تيار الحياة المادية بالشكل الذي نعيشه اليوم فإنه ينذر بمشكلات اجتماعية ونفسية صعبة ، كتلك التي يعيشها الغرب وقد بدأت بعض ظواهرها تطفو على السطح في معظم بلادنا الإسلاميّة .

إنّ الغرب يحاول يائساً أن يتفادى آثار التفكك الأسري والترابط الاجتماعي ، في شكل إقامة ملاجيء اجتماعية، أو حفلات ترفيهية ، أو مناسبات دينية وما شابه ذلك ، إلاّ أن هذه وغيرها لم تساعد على حلّ المشكلات النفسية والاجتماعية لديهم ، لأن معظم القلوب قد طغت عليها المادة ، وأعماها حبّ النفس ، وتجردت من الروح الإنسانية المطلوبة ، بالإضافة إلى أنها لا تستند إلى رابطة العقيدة والدين .

والذي يخشى منه الإنسان أن نسير نحن على الطريق نفسه ، فقد وصل الأمر بكثير منا أن يرى جاره بجانبه أو يركب معه المصعد ، ولا يقرئه السلام ، ونسمع عن قريب لم يقم بزيارة قريب له منذ سنوات ، ويتندر شخص بأن أعماله ومشاغله لم تعد تسمح له بوقت كاف للأسرة والأولاد .

الكثيرون يسألون ما الحلّ ؟ . في اعتقادي أن الحلّ بيد كل واحد منا وقد بينه رسولنا الكريم ﷺ يوم أن نصح أحد الصحابة (كما يفهم من عدد من الأحاديث) قال ﷺ : « **إِنَّ لِبَدَنكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَأَنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا ، وَأَنَّ لِزَائِرِكَ –من يزورك من الناس– عَلَيْكَ حَقًّا ، وَأَنَّ لِجَارِكَ حَقًّا ، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه** » رواه البخاري والترمذي (انظر فتح الباري ٤/٢٠٩ ، ٢١٧ ، ٢٢١ وصحيح مسلم كتاب الصيام رقم ١١٥٩ وأبو داود رقم ١٣٦٩ .

إنه تحدى العصر الذي نعيش فيه ، فكيف يمكن للمسلم أن يحقق التوازن في حياته ، فلا يفرط في شيء على حساب آخر ، إنّ الأمر يتطلب أن يخلص الإنسان مع نفسه ، ويوقفها عند حدود الوسطية التي نادى بها الإسلام ، والتي يحيا بها الإنسان حياة طيبة في الدنيا والآخرة ، وتساعد على بناء مجتمع إسلامي متماسك ، بينما يؤدي اختلال التوازن إلى فقدان الحياة الاجتماعية المؤنسة ، ويساعد على إيجاد مجتمع غير مترابط .

ولقد استطاع نفر ممن أعرف تحقيق جزء من هذا التوازن ، بالرغم من مشاغلهم الجمّة وهذا يدل على أنه ليس من المستحيل ممارسة التوازن في عصر كثرت فيه المشاغل .